

# نابلس في مذكرات وكتب الرحالة الروس في القرن التاسع عشر

د.د. عمر محاميد

عضو الجمعية الروسية الفلسطينية

تحدث الكتب والمدونات التاريخية الروسية عن مختلف المدن والقرى الفلسطينية ويحتفظ الارشيف الروسي التاريخي والدبلوماسي والأدبي على كثير مما تركه العلماء والأدباء والدبلوماسيون الروس الذين زاروا فلسطين كحجاج أو كتاب أو دبلوماسيين؛ كالكاتب العبقرى الكبير نيقولاى غوغول صاحب "الأرواح الميتة" والمعطف" أو ايفان بونين وبيوتر فيازيمسكى الشاعر صديق شاعر روسيا الكبير الكسندر بوشكين الذي كتب الكثير من الانطباعات عن شقاء الفلسطينيين الفقير في إحدى قرى نابلس وهو يراقب كيف يقوم أحد الأتراك من الجندمة بتعذيب فلاح. فيكتب قصيدة عن ذلك يتعاطف فيها مع الفلسطيني المحب لأرضه؛ النشيط.

ويعود تاريخ الرحلة إلى فلسطين إلى القرن الحادى عشر الميلادى عندما قام الأسقف دانييل بزيارة إلى فلسطين في عهد الحروب الصليبية، وازداد الاهتمام الكبير للمثقف الروسى بالشؤون الشرقية في منتصف القرن التاسع عشر

ويعتبر الكاتب الروسى الدبلوماسى والمؤرخ قسطنطين بازيلي من أوائل الدبلوماسيين الروس الذين وصلوا إلى بلاد الشام واستقر في بيروت متجولاً في رحلات متتالية في أنحاء بلاد الشام فلسطين وسوريا استمرت بضع سنوات تخضت هذه المذكرات والرحلات عن كتاب هام هو "سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني".

ويعتبر هذا المؤلف من أهم ما كتب عن فلسطين وخاصة عن فترة ابراهيم باشا وحملته على فلسطين، وتحول مدينة نابلس إلى عاصمة الانتفاضة ضد ابراهيم باشا حيث يتحدث الفصل الثامن من كتاب بازيلي الهام الذي نشر لأول مرة عام 1862 في مدينة اوديسا بالروسية ثم ترجم إلى الفرنسية والانكليزية عن انتفاضة جبل النار ميينا الأسباب والدوافع التي كانت من وراء تمرد منطقة جبال نابلس على ابراهيم باشا.

ويتناول قسطنطين بازيلي بالتحليل أوضاع فلسطين ومنها مدينة نابلس الاقتصادية والسياسية وعلاقة الباب العالي من فكرة محمد علي باشا وما جاء به إلى فلسطين وعملية التجنيد الإجبارى التي جوبهت بانتفاضة في مدينة نابلس ضد ابراهيم باشا قائد الحملة إلى فلسطين في ربيع عام 1834 وتحرك والده محمد علي باشا لإنقاذه. ويصف معظم من تعرف على المصادر التاريخية لجبل نابلس أهمية كتاب بازيلي صاحب العقل الثاقب وهو من أوائل من قام، وبرؤية علمية، بتحليل أهمية مدينة جبل النار في الحياة الاقتصادية والسياسية ليس الفلسطينية فحسب؛ بل العربية عامة وبلاد الشام لموقعها الجغرافي الهام.

وتعتبر نابلس مدينة تاريخية شهدت أحداثاً ذكرتها الكتب المقدسة: التوراة والإنجيل

وكانت المحطة الثانية بعد مدينة جنين في الطريق من الناصرة إلى القدس وبيت لحم، وقد وجدت لها مكانا بارزا في أدب الرحالة الروس، فقد ذكرها الرحالة الكسندر سوفورين في كتابه الضخم "فلسطين" الذي صدر عام 1889.

أما كتاب الأسقف باريفيري اسبينسكي مبعوث الكنيسة الروسية الأرثوذكسية الذي وصل إلى فلسطين في نيسان عام 1843 ومكث فيها سنوات عديدة قام خلالها بزيارة جميع المدن والقرى الفلسطينية؛ فهو كما كتب كراتشكوفسكي "من الاوائل في تاريخ علم الاستعراب الروسي ممن اهتموا بالمصادر التاريخية المتعلقة بالأدب المسيحية العربية وحافظ على الكثير من الأسماء من الضياع، ونشر باللغة الروسية طائفة من مقتطفات الأشعار والمدونات التاريخية التي اكتشفها هو، وصدر كتابه في وصف ما شاهده تحت عنوان "كتاب عن حياتي" وفيه شرح عن أهم مدن فلسطين ومنها نابلس.

أما كتاب الأسقف انطونين كابوستين فهو وثيقة هامة عن حياة المدن الفلسطينية وكثير من الرحالة اهتم بأوضاع وحياة الطائفة السامرية وأبناء الطائفة المسيحية، وكان من أكثر الشخصيات الدينية الأرثوذكسية ارتباطا بالأرثوذكس العرب. ويعتبر كتابه "يوميات انطونين كابوستين" وثيقة هامة عن حياة المدن الفلسطينية، وتحتل نابلس مكانا خاصا في هذه اليوميات كما هو الحال في معظم كتب الرحالة الروس إلى فلسطين.